

المحفى العراقي الجديد

والمحافي العراقية في التاريخ

Les Académies dans l'histoire de la Mésopotamie.

١ - تمهيد

اثبت مكس نوردو المجري Max Nordau من اقطاب المعصر في علمي الاجتماع والنفس المتوفى قبل ثلاث سنوات في كتابه «روح القومية»: «الله لا يحدد القومية في الحقيقة إلا اللغة، فباللغة وحدها يعتبر الانسان عضوا في جسم الامه، وهي وحدها نخوله حق القومية، كما انها اعظم رابطة بين البلاد والاقوام.»

ولما كانت اللغة العربية لسان الشعب العراقي واللغة الرسمية للدولة العراقي فقد اصبح العراقيون باجمعهم مكلفين بحماية ذمار لغة الضاد والعمل على ما فيه حياتها ونمائها. والحكومة مسؤولة عن هذا قبل غيرها لان البلاد في طور اجتماعي يجعل الحكومة المرجع الاول في العمران والاصلاح.

ولا يكفي لاغزاز لغة شعب ان تكون اللغة الرسمية للحكومة وتكون قبل ذلك لغة الجمهور اذ بالحكومة تكون اللغة لسان الدواوين فيتعلمها الناشئون ويتقنونها وتجرى معاملات الافراد باللغة المذكورة عنها كما هي حال الانسة العربية في العراق اليوم، انما يجب على من يديهم الحل والعقد ان يبذلوا الجهد في ما ينمي اللغة ويرقيها ويجعلها لغة العلوم والفنون بحيث تضاهي ارقى اللغات المصرية لاعرق الامم في الحضارة.

ولا تحظى اللغة بهذه النعمة إلا اذا كان هناك محفى (١) (مجمع علماء) يضم نخبة المتبحرين في اللغة ولهم معرفة بالعلوم والفنون الحديثة فيتمهون لغة الامم بالعباية ويتمشون بها مع تدرج الحياة المصرية جنبا الى جنب.

وقد شعرت حكومة العراق بهذا الواجب فقامت لتؤيد في فجر الحياة المستقلة، فألفت المحفى العراقي الجديد في هذه الايام.

(١) المحفى وزان موسى او معنى كلمة وضمها الاب انستاس ماري الكرملني لتقابل Académie عند الافرنج والعضو في المحفى محفوى . ر.ب.

٢ - محافي العراق في العصور الخوالي

ظهر من البحث ان الحمريين (١) هم اول من اسس الجامعات العلمية والمحافي القوية في العراق ان لم نقل في العالم كله . وورث العرب عن اوائلهم الحمريين اقلية الاسواق ومجتمعات العلم والتجارة والمناصرة والمجادة ، فكانت اشبه شي بمجامع العلماء ثم انتقلت من الحياة الجاهلية الى الحياة الاسلامية .

فمن اسواق العرب الادبية القديمة (سوق الحيرة) كان العرب يجتمعون اليها كل سنة للمجادة . وقد جعل النعمان بن المنذر اللخمي ابني لام الطائيين ريع الطريق طعمة لهم لمصاهرتهم اياهم بتزويجهم منهم .

اما (المرید) في البصرة فهو اول معرض عراقي وجمع علمي عظيم في الدولة الاموية حتى انهم نعتوه بـ « عكاظ المسلمين » اقاموا فيه سوقا للاداب نظير اسواقهم في الجاهلية فتألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة (٢) ومجالس العلم والادب (٣) فكان الشعراء يؤمنونهم ومعهم روايتهم وكان لفحولهم حلقات خاصة اشهرها حلقة الفرزدق والراعي (٤) وكان الاشراف يخرجون الى المرید لمثل تلك الغاية . وجرت فيه مناظرات البصريين والكوفيين وممجاداتهم . وقد زارها ياقوت الحموي في القرن السادس للهجرة وكتب عنه في سفره : « معجم البلدان » ما ملخصه :

« هو من اشهر محال البصرة ، وكان يكون سوق الابل فيه قديما ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . وهو الآن بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة اميال وكان ما بين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب ، فصار المرید كالبلدة المفردة في وسط البرية ... »

« وينسب اليها جماعة من الرواة منهم سمالك بن عطية المريني البصري ... »

(١) صحيح كتابة كلمة حوري ان تحذف الواو والياء اي حرب بضم الميم الشديدة وكثير الباء المشددة ايضا . كما تكتب عبدالله فانك لا تكتبها عبد الله بل عبد الله . هكذا يقول علماء لشرقيات الذين يحسنون اللفظ للسمارية الخط واللغة العربية . ل.ع.

(٢) الاغانى ج ٢ ص ١٨٢

(٣) الاغانى ج ٣ ص ٥٩

(٤) الاغانى ج ٢٠ ص ١٦٩

وابو الفضل عباس بن عبدالله بن الربيع بن راشد مولى بني هاشم المربدي حدث عن عباس بن محمد وعبدالله بن محمد بن شاكر حدث عنه ابن المقرئ وذكر انه سمع منه بمريد البصرة . والقاضي ابو عمرو القاسم بن جعفر بن عبد الواحد العاشمي البصري . قال السلفي : كان ينزل المريد « (١) »

وكما كان للبصريين مريدهم ، فقد كان للكوفيين سوقهم يخرج اليها اشراقهم في ضواحي الكوفة . فتجري فيها المناشدة الشعرية والمحاكمة الادبية ونحوهما . ولئن كان للبصرة فضل اللغة والادب فللكوفة فخارها بشعرها . وقف المختار ابن ابي عبيد في اثناء حروبه بالعراق على اشعار مدفونة في « القصر الابيض » بالكوفة مما يدل على عناية الكوفيين بالشعر (٢) لكن اكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله (٣)

ثم جاء الخلفاء العباسيون فعنوا بترقية العلوم والاداب عناية تضاءلت بجانبها عناية من سبقهم . فانشأوا المجالس العلمية للعلماء والادباء ، ومشاهير الخلفاء الذين يقرن اسمهم بالنهضة العلمية في العصر العباسي السفاح والمنصور والمهدي والرشد والمأمون والمستنصر . اسسوا مجامع للترجمة في علوم النجوم والطب والهندسة وعقد هرون الرشيد ووزراءه البرامكة مجالس ومجامع وسعوا بها نطاق المعارف وانشأوا دواوين الترجمة والمباحثات حتى في بيوتهم . ويمكن ان تقسم نهضة الترجمة في العصر العباسي الى طورين متميزين :

— الطور الاول —

من نشوء الدولة العباسية الى جلوس المأمون بن الرشيد على اريكة الخلافة اي من سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) الى سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) . وقد انتج هذا الطور كتباً مترجمة كثيرة نقلها كتّاب و مترجمون نالوا الخطوة عند الخلفاء . وكان كل منهم مستقلاً بنفسه واكثرهم من المسيحيين والاسرياليين .

ومن اوائل المترجمين ان لم يكن اولهم عبدالله بن المقفع المتوفى سنة ١٣٢

(١) معجم البلدان طبع اوردته المجلد الرابع ص ٥٨٤

(٢) الخصائص لابن جني

(٣) اللزهر ج ٢ ص ٢٠٦

او ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) واشهر مغلقاته المترجمة كتاب « كليلته ودمنته » وكان يدعى في البلوية والسنسكريتية القديمة « اساطير الحكيم يديا » .

ويقول المسمودي (١) ان الخليفة المنصور توفرت عليه الترجمة والانتاج الادبي فنقل في عهده عدة مقالات لارسطوطاليس وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك وكتاب اقليدس في الهندسة وغيرها نقلت عن اليونانية والرومية والسريانية والفارسية . ويقول بعض المحققين ان الكتب المنقولة عن الفارسية والسريانية هي في اصلها ترجمات عن اليونانية .

وعلى عهد المنصور اسس اطباؤا « جرجس بن بختيشوع » وتلامذته واقاربه المدرسة الطبية في بغداد وفيها الف عيسى بن صهاربخت « تلميذ جرجس » كتابه « فن تحضير الادوية » (الاقرباذين) من اوائل الكتب الطبية العلمية في العربية .

ومن مشاهير ذلك العهد « ثابت بن قرّة الحكيم الحراني » كان صيرفيا في حران ثم انتقل الى بغداد فاشتغل بالعلم والطب والفلسفة وعمل مع النجميين باشراف الخليفة المنصور ، وله اولاد واحفاد اشتهروا بالفضل ونفعوا في الرياضيات والفلك .

— الطور الثانى —

هو ازهر عصور النهضة العلمية العربية ، بدى بثولي المأمون بن هرون الرشيد عرش الخلافة سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) وانتهى بانطواء بساط بني العباس في اواسط القرن السابع الهجري واوائل القرن العاشر الميلادى .

فالخليفة المأمون العباسى هو المؤسس لمجمع العلماء (الاكاذمي) في بغداد جمع فيه طائفة صالحة من المشتغلين بالعلم والفلسفة والترجمة وكان اكبر همهم ان يصيغوا الكتب التي ينقلونها او التي نقلت في قالب يستطيع به طلاب العلم من العرب الوقوف على اسرار العلم والحكمة .

وهو الذي حث « محمد بن موسى » على ان يؤلف مقالاته المشهورة في الجبر وهي اول كتاب ألف في العربية في علم الجبر منها نسخة خطية في خزانة بودلى

بجامعة اكسفورد مكتوب عليها انها نسخت سنة ١٣٤٢م وقد ترجمت الى اللاتينية في عصر الانبعاث العلمي Renaissance ولكنها فقدت الآن .

وقد اسس الخليفة المأمون مدرسة بغداد سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) على نسق المدارس النسطورية والزرادشتية التي كانت مؤسسة قبلا ووسمها بـ « بيت الحكمة » وجعل منها جها نقل المتون اليونانية في الفلسفة والعلوم الاخرى الى العربية ، واول كل امرها الى « الطيب يحيى بن ماسويه » المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) وهو ابو زكريا . كان ابوه صيدليا في جنديسابور وثقفا في بغداد جبريل بن بختيشوع وعاصر ثلاثة خلفاء المأمون والواثق والمتوكل ، وخلف مؤلفات كثيرة في الطب باللغتين السريانية والعربية ومقاتله في (الحميات) كانت العمدة في موضوعها بوقتها ونقلت الى العربية واللاتينية .

وقد كتب الخليفة العالم الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة في بلده فاجابه الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحاجاج بن مطر وابن البطريق وسليمان صاحب « بيت الحكمة » وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوا اليه امرهم بنقله فنقل (١) .

ولكلف المأمون بالعلم والترجمة كثيرا ما كان يعقد شروط الصلح مع بعض ملوك الروم الذين يحاربهم على دفع الفرامنة كتبيا توضع بين ايدي العرب وترجم الى لسانهم .

وكان ندي اليديين على التراجمة يعطيهم زنة ما يترجمونه له من الكتب ذهابا ، واشتهر بوسمه الكتب المترجمة له بسمة خاصة تتميز بها عن غيرها ، ووضع الفهارس لخزائن الكتب على طريقة عصرية . وذكر غريغوريوس ابن العيري الماطي مؤلف « مختصر تاريخ الدول » ان المأمون كان يحرض الناس على قراءة تلك الترجمات ويرغبهم في تعلمها . لذلك كثر لديه المترجمون عن الفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية والكلدانية واليونانية واللاتينية والمؤلفون في جميع الفنون العربية والدخيلة .

هـ هي الجسادة التي سلكها اعلم الخلفاء. في خلق نهضة علمية سطع نورها في المشرق والمغرب ولم يبرز لها نظير إلا في حركة الانبعاث (الرينسانس) في ايطاليا بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح في اواخر القرون الوسطى.

ويدون التاريخ اسماء جماعة هم اساتذة بيت الحكمة واصحاب الجهود العلمية في عصرهم وكلهم تلامذة يحيى وتابعوه نخص بالذكر منهم : « حنين بن اسحاق المبادي » النسطوري درس في بغداد والاسكندرية وفي الاخرة اتقن اللغة اليونانية ، اشتغل بالترجمة زمنا من اليونانية الى السريانية . ومن اشغاله العلمية : الايساغوجي لفروريوس وارمانوطيقا لارسطوطاليس وجزءا من الاناليطيقا ومقالة ارسطوطاليس في الروح وجزءا من الميثافيزيقا وتلخيصات نيقولاوس الدمشقي وتعليقات الاسكندر الافروديسي والجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس وديوسقورس وبولس الاجانيطي وابقراط وجزءا من منطق ارسطوطاليس الاورغانون Organon وترجم اصول اقليدس الى العربية و « جمهورية افلاطون » وكتاب « ثيماوس » لافلاطون وكتاب ارسطوطاليس « في المعارف » وقد توفي سنة ٥٢٦٣ (٨٧٦ م) . وابنه « اسحق بن حنين المبادي » الذي ترجم الى العربية كثيرا من الكتب منها « السفسطة » لافلاطون ومقالة ارسطوطاليس « في الروح ».

ويقول البعثة اسماعيل بك مظهر في مقالته « تاريخ تطور الفكر العربي » « كان القرن الرابع الهجري العصر الذهبي لتاريخ الترجمة يرجع فضلنا الى ثمة من المسيحيين كانوا يتكلمون السريانية واحسنوا الترجمات التي درسوها في لغتهم (١) » .

وقد نقلت عن اليونانية مباشرة كثير من الآثار ومن اشهر مهرة المترجمين : « ابو بشر متى بن يوس » المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م) وقد ترجم الى العربية اناليطيقا الثانية Analytica Posteriora والبوطيقا (الشر) لارسطوطاليس

(١) القنطط جزء آب ١٩٣٥ والكتاب اول عالم مسلم ترجم كتاب « اهل الانواع » لشارلس دارون زعيم الفلاسفة الماديين

وغيرها نقلها عن السريانية وله مؤلفات مبتكرة في التعليق على قاطيفورياس اي المقولات لارسطوطاليس والايساغوجي لفرفور يوس .

و « ابوزكريا يحيى بن عدي التكريتي » المتوفى سنة ٨٣٦ (٩٧٤م) ترجم كتباً كثيرة من ارسطوطاليس وكتاب القوانين لافلاطون . وكان ملازماً للنسخ يكتب خطأ قاعداً بينا في اليوم واليلة مئة ورقة واكثر .

و « ابو علي عيسى بن زاراء » الذي ترجم كتاب « قاطيفورياس » من ارسطوطاليس والتاريخ الطبيعي وكتاب الحيوانات مع تعليقات يوحنا فيلوبونس . وقد نقل « ابو بكر احمد بن علي بن قيس الكلداني » المعروف بـ « ابن وحشية » الذي عاش سنة ٨٢٩١ (٩٠٣م) كتاب « الفلاحة النبطية » عن الكلدانية في خمسة اجزاء منها نسخ خطية في برلين وليفن واكسفورد ودار الآثار البريطانية وباريس ودار الكتب المصرية . وقد ظهر للعلماء المحدثين ان الكتاب المذكور هو من وضعه وليس بترجمة من اصل . (راجع ما ذكره الايطالي كرولونينو في كتابه علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ص ٢٣٥ الى ٢١٠)

ونقل « قسطا بن لوقا » كتاب « الفلاحة اليونانية » عن السريانية . وهذه الوسيلة لم يبق ضرب من العلوم والصنائع والفنون إلا نقلت كتبها الى العربية وتعلمها العرب ثم علموها . ولم يفهم من الفنون سوى الجراحة في الطب والنحاتة والتصوير من الاداب الفتانة . لانها من الامور المحرمة في الشرع الاسلامي . وهكذا اجتمع عند العرب خلاصة علوم الاقدمين من يونان وروم ومصر وفرنس وهنود وكلدان وانباط ومصريين وغيرهم ممن درج قبلهم وعنوا بها مدة من الدهر ، وعندهم اقتبسها الافرنج حين تثبتت فطنتهم وثابت همهم من سبائنا فيما يسعون في عصر الانبياء (١)

ويجب ان لا يفوتنا ذكر جمعية وهي وان لم تكن لغوية اذية لانه كان لها اثر في النهضة العلمية الفلسفية وهي جمعية (اخوان الصفا) التي اسست في البصرة في اواسط القرن الرابع الهجري (المائة الماشرة للمسيح) ذكرها من اعضائها

(١) تاريخ الاداب العربية من نشأتها الى ايامنا ص ٤١٣ تصرف قليل

خسة هم : ابو سليمان محمد بن مشير البستي ويعرف بالمقدسي ، وابو الحسن علي بن هرون الزنجاني ، ومحمد بن احمد الهرجاري ، والدوفي ، وزيد بن رفاعه . وكانوا يجتمعون سرا تسترا عن الذين يخالفونهم ويضادونهم فقرروا في جلساتهم المتعددة خلاصة الفاسفة الاسلامية بعد ان وقفوا بين ابعث الفلاسفة المسلمين والاراء اليونانية والهندية والفارسية . فتوصلوا الى مذهب خاص اساسه ان الشريعة الاسلامية تدنس بالجهالات واختلطت بالضلالات ولايسيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والباحة الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال (١) .

ودونوا فلسفتهم في خمسين رسالة سميت « رسائل اخوان الصفا » وقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او الهني او عقلي وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها . ويظهر من دراستها ان مؤلفيها دونوها بعد البحث العميق والروية الطويلة . وفيها بحث من نوع فلسفة النشؤ والارتقاء . وفي ذيلها فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والنشقة والغرض منها التعاضد في الدين وشروط قبول الاخوات فيها . وقد اغفل المؤلفون اسماءهم من هذا الكتاب بسبب ان الفلاسفة كانوا متهمين بالكفر في هذا العصر وكان الانتساب الى الفلسفة مرادفا للانتساب الى التعطيل حتى شاعت النعمة على المأمون نفسه لانه كان السبب في نقل الفلسفة الى اللغة العربية حتى قال ابن تيمية بعد ذلك : « ما اظن الله يغفل عن المأمون ولا بد ان يعاقبه بما ادخله على هذه الامة » .

وطبعت هذه الرسائل في اوربة والهند ومصر ، واتقنها طبعة ديتريشي في ليبسك سنة ١٨٨٣



ثم دب ديب الفساد في جسم الحكومة العباسية في اواسط القرن السابع الهجري واواخر القرن العاشر الميلادي فانتقض حبل دولتها واستولى على البلاد المغول واعقبهم العثمانيون بعد ذلك بدحو ثلاثة قرون فتدهورت اللغة العربية ودرست معالم معالمها وامحت آثار محافها .

(١) جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٤٢